الطوال والقصار

ادرجنا في السنة الثانية من المقتطف مقالتين عنوان احداها "القصر ونوادر القصار" وعنوان الأخرى "الجبابرة وغرائب الخلق" ضمّناها اشهر ما ذُكِر عن طوال القامة وقصارها وما كان معروفًا عن اسباب الطول والقصر. وقد اقتطفنا هذه المقالة لذكر ما جدّت معرفته او تحقّقت بعد ذلك العهد ورأينا لاتمام الفائدة ان نبحث عن كل مسألة من المسائل التالية على حدتها وهي: اولاً هل كان الناس قديمًا اطول واقوى مما هم عليه اليوم. وثانيًا هل يوجد في زماننا قُزُم تنابلة وطوال جبابرة كالذين ذكرهم الاقدمون في زمانهم. وثالثًا كم يبلغ الفرق في الطول بين اطول الشعوب في زماننا واقصرها وبين الافراد. ورابعًا ما هي اسباب الطول والقصر في الشعوب عمومًا. وخامسًا ما هي الاحوال والمؤثرات التي تؤثر في قدّ الانسان وقامته. وسادسًا هل الطوال اسرع ممّن هم اقصر منهم وانشط واصبر على المتاعب والمشاق

اما الأولى فنقول فيها ان غالب الناس يزعمون ان الاوّلين كانوا اطول قامةً واكبر قدًّا من اهل هذا الزمان وقد كان هذا زعم اهل كل زمان عن الذين سبقوهم بالنسبة اليهم. وفي سنة ١٧٥٨ انشأ هتريون الفرنسوي مقالةً قدّمها لمجمع النقوش في قصر قامة الانسان من عهد آدم الى عهد المسيح زعم فيها ان طول آدم كان ١٢٣ ٣/٤ القدم وطول حوّاء ١١٨ قدمًا و ٩ ٣/٤ قيراط ثم جعل اولادهم يقصرون حتى كان طول نوح مئة قدم وطول ابرهيم الخليل ثمانيًا وعشرين قدمًا وطول موسى الكليم ثلث عشرة قدمًا وطول هرقل البطل عشر اقدام وثماني قراريط ونصف قيراط. وطول ذي القرنين ست اقدام ونصف قدم. وقبل ان المجمع العجب بمقالته هذه اعجابًا عظيمًا وانزلها منزلة سامية وعدّها اكتشافًا جليل الشان وهي تعدّ اليوم من اقاصيص الصبيان. والمحقّق على ما ابنّاهُ في مقالة "الجبابرة ونوادر الخلق" المشار اليها آنفًا ان البشر ليسوا الآن اقصر مما كانوا في اي زمان كان من ازمان وجود الانسان ويُعرَف ذلك من عظامهم القديمة العهد وجثثهم المحنّطة وابواب خزائنهم واسلحتهم ودروعهم وغيرها. فكلها شاهدة بان الناس لم يقصروا بل ربما طالوا عما كانوا عليه. واما القوّة فهي ارجح ايضًا لاهل زماننا على ما حكم به الذين دققوا في قياس افعال القدماء والمحدثين وفي مقابلة ما بقي من آثار قوة القدماء بآثار قوّة المحدثين. فحكم الخاصة ينفي حكم العامّة وعليه المعوّل.

واما الثانية فنقول فيها ان القدماء ادّعوا بوجود اقوام من التنابلة القصار في جهات مختلفة من الارض واقوام من الجبابرة الطوال في جهات أُخرى. وعيّنوا لبعض القصار حدًّا في غاية

من القصر حتى زعموا انهم كانوا يقطعون القمح بالنؤوس كما تقطع كبار الاشجار الى غير ذلك مما أوردناهُ في مقالة "القصر ونوادر القصار". وعيّنوا لبعض الطوال حدًّا في غاية من الطول كما رأيت آنفًا. وكلا الحدَّين لا يقبلهُ الذوق السليم. والذي ثبت في زماننا انهُ لا يوجد في ارض اقوام زائدة في القصر او الطول زيادة فاحشة. اما القصر فلانهُ لا يوجد في زماننا قبيلة ينقص متوسّط طولها عن اربع اقدام نقصًا يُذكَر. فمتوسّط طول الاسكيمو خمس اقدام وقيراطان واللبلندي خمس اقدام وقيراط واللبلندية اربع اقدام وسبعة قراريط وهم من اقصر الشعوب وكذلك قبيلة أكاس التي شاهدها شتينثرت في افريقية واهالي جزائر فيليبين واندامان وملقا وتنابلة مدغسكر والبشمن في جنوبي افريقية ومتوسط طول هؤلاء من ٤ اقدام و٥ قراريط الى ٤ اقدام و ٦ ٣/٤ القيراط. فاقصر قبائل الارض لا يقلُّ متوسط طولها عن اربع اقدام وكسر من القدم والقزم النبل لا يزيد طولهُ عن تلك اقدام فاذا زاد لم يستغرب قصرهُ استغرابًا يُذكَر واذا بلغ الاربع فما فوق عُدَّ رجلاً قصيرًا وليس قزمًا نِبْلاً

واما الطول فلأن أطول الشعوب هم اهل نروج وهنود اميركا الشمالية واهل بتغونيا والكفرة في جنوبي افريقية وسكان جزائر المحيط. والكفرة وسكان المحيط يبلغ متوسط طولهم ست اقدام. فأقصر شعوب الارض لا يُعَدُّون تنابلة وأطولهم لا يُعَدُّون جبابرة. وما رواهُ الاقدمون عن اهل زمانهم لا نظير لهُ في اهل زماننا:

واما الثالثة فنقول فيها انهُ لما كان طول اطول الشعوب نحو ٦ اقدام وطول اقصرها ٤ اقدام و٥ قراريط فالفرق بين اطولها واقصرها نحو قدم واحدة وسبعة قراريط ومتوسط طولها نحو ٥ اقدام و ٣ قراريط. وهذا هو معدّل الطول المعوّل عليهِ عند علماء الانثروبولوجيا فالشعوب التي يزيد طولها عن ٥ ١/٢ قدم طويلة والتي يقلُّ عن ٥ ١/٤ قدم قصيرة والتي بينَ بينَ متوسطة القامة

هذا في الشعوب واما في الافراد فقد يزيد بعضهم عن الحدّ المذكور زيادة عظيمة في الطول وهم الجبابرة او في القصر وهم التنابلة * فالجبابرة ذكر المؤرخون القدماء ان منهم مَنْ بلغ من عشر اقدام الى اثنتي عشرة قدمًا طولاً ولكن لم يعثر الباحثون من المتأخرين على مثل هذا الطول في زمانهم. والمحقق انهُ عُرِض في معرض روان سنة ١٧٥٥ رجلٌ طولهُ ثماني اقدام. وذكر العلاّمة بفون انهُ كان في زمانهِ فلاّح اسوجي طولهُ ثماني اقدام وثمانية خطوط. ويوجد اليوم فتًى يونانيٌّ عمرهُ ثماني عشرة سنة واسمهُ اماناب وطولهُ سبع اقدام وثلثا القدم ورجل صيني اسمهُ شنغ طولهُ ثماني اقدام وربع قدم وآخر نمسويٌّ اسمهُ فِنْكَلْمِير وطولهُ ثماني اقدام ونصف قدم وقد قيس في باريس حديثًا وهو اطول جبّار تحقّق قياسهُ الى هذا العهد

والتنابلة يوجد منهم كثيرون ويختلف طولهم بين اثني عشر وعشرين قيراطًا ولكنهم مسوخٌ غير كاملين في خلقهم إما لاعوجاج سوقهم او لالتواء قفارهم واحديداب ظهرهم او لغير ذلك من الاسباب فلا يُعتدُّ بهم . والمثل الكامل الخَلْق السالم من العيوب هو بور ولاسكي المذكور في مقالتنا "القصر ونوادر القصار" لم يزد طوله كل ايامهِ عن ثمانية وعشرين قيراطًا وعاش من سنة ١٧٨٩ الى سنة ١٨٣٧ وكان ذكيًّا نبيهًا مع كمال خَلقهِ . فهو اقصر تنبل استوفى الشروط . والفرق بينهُ وبين الجبار النمسوي المذكور انفًا نحو ست اقدام وقيراطان ومتوسط طولها نحو خمس اقدام وخمسة قراريط وهذا يساوي طول متوسط الشعب الفرنسوي تقريبًا

واما الرابعة وهي اسباب الطول والقصر في الشعوب فنقول فيها ان سبب تفاوت الشعوب في الطول والقصر هو تفاوتهم في التغذية فاذا توفر الغذاء لشعبٍ طالت افرادهُ واذا قلَّ عليهِ قصروا . وهذا كلام مجمل يقتضي زيادةً في التفصيل والايضاح . فقد كانوا قبلاً يزعمون ان قصر الشعوب وطولها تابعان لبرد اقاليمها وحرّها وان البرد اشهر اسباب القصر كما تجد في مقالة القِصَر ونوادر القصار واستشهدوا على صدق قولهم بان سكان منطقة الزمهرير من اهل غرينلندا ولبلندا والاسكيمو وغيرهم قصار القامة وسكان المنطقة المعتدلة من الالمان والانكليز والروس وغيرهم طوالها . والاصحُّ ان قلّة التغذية هي السبب في قصر الشعوب وكثرتها في طولها . والتغذية لها شرطان وهما قابلية التمثيل ووفرة الغذاء . فسكان الاقاليم الباردة تقبل اجسادهم تمثيل الطعام اكثر مما يقبله سكان الاقاليم الحارة لشدّة الاحتياج الى الغذاء في البرد وقلة الاحتياج اليهِ في الحرّ كما لا يخفى . فاذا توفّر الغذاء في الاقليم البارد وتسهّل لسكانهِ الوصول اليهِ والاستكثار منهُ طالت قامتهم وكبرت قدودهم واذا عزّ القوت فيهِ وكان سكانهُ في شظفٍ من العيش قصرت قامتهم وصغرت قدودهم . ألا ترى انهُ لمّا عزّ وجود الحوت والوحش والطير قلّ القوت على اهل لبلندا واسكيمو الجزائر الشمالية واهل شرقي غرينلندا حيث يطول البرد ويشتدُّ الزمهرير قصرت قدودهم وصغرت جسومهم بخلاف الاسكيمو الموغلين جنوبًا حيث يكثر الحوت والوحش لاعتدال الهواء بعض الاعتدال فانهم اطول من اولئك قامة واكبر قدًّا ويبلغ متوسط طولهم خمس اقدام ونصف وهو يزيد على متوسط طول الفرنسويين . وفي كندا باميركا يشتدُّ البرد ولكن يكثر القوت ويتوفّر الغذاء ولذلك كان سكانها الاصليُّون والمهاجرون من اطول اهل العالم قامةً . وقس على ذلك طول الروس والانكليز والالمان واهل شمالي فرنسا وشرقيها فكلهم من الشعوب الطويلة القامة الكبيرة الهامة

اما البلاد التي يزيد فيها الحرُّ عمَّا تقدم ويشتدُّ صيفًا فلا يشتد طالب اهلها للقوت فتقلُّ فيهم

التغذية ولذلك لا تطول جسومهم ولا تكبر هاماتهم ولو فاض عنهم الطعام كالايطاليين والاسبانيين والبرتوغاليين والمصريين واليونان وغيرهم . ولما كان المدار على التغذية فسكان الاقاليم المتشابهة في حرّها وبردها يتفاوتون طولاً باختلاف بلادهم في الخصب والجدب . فاهالي البلاد الخصبة اطول من اهالي القاحلة . والموسرون اطول من المعسرين . وسكان المدن والامصار اطول من سكان القرى والريف . وسكان البلاد التي تنتابها المجاعات اقصر من سكان التي يطول لها رغد العيش . والتي تكثر فيها الحروب اقصر من التي يطول فيها السلام لان الحرب تفني اقوياء الامّة واصحاءها وتجرّ على من بقي الشدة والضنى والاوبئة والآفات فيقلّ عدد من كان من افرادها فوق المعدّل طولاً كما حدث لفرنسا عقب حروبها الطويلة في خنام القرن الثامن عشر

واما الخامسة فنقول فيها ان سن الانسان هو من اشهر ما له علاقة بطوله ونموه فترى الولد ينمو ويطول سريعاً في بدء عمره وبطيئاً بعد ذلك حتى يتكامل نموهُ وطوله فيدوم على ذلك الى الهرَم ثم يقصر حتى يموت . وقد قاس بعض العلماء والاطباء نمو اجساد الاطفال في الثقل والطول قياساً يومياً مدةً من الزمان وحفظوا اقيسهم فتبيّن من النظر فيها انهُ متى ضعف الطفل كما في النسنين او الحمّى او نحوها يقف نموهُ في الطول ويخفّ وزنهُ . وكذلك متى أُجهدت عقول الاولاد بالدرس ونحوهِ وحملوا هموم الامتحان وغيرها . ومن الاولاد مَنْ يطول سريعاً ويتكامل نموهُ باكراً ومنهم من لا يتم نموهُ قبل الخامسة والعشرين او الثلاثين من عمرهِ وكثيرون لا ينمونهُ قبل الحادية والعشرين

ويختلف معدّل نمو الاولاد باختلاف جنسهم فالصبيان يكونون اطول من البنات قامةً واثقل وزناً في الحادية عشرة والثانية عشرة ثم يعجل البنات في النمو فيدركنهم ويسبقنهم حتى يبلغنَ الخامسة عشرة فيفنَ . ثم يدركهنّ الفتيان ويسبقونهنّ كما ترى في الفرق بين الرجال والنساء . وقد وزن بعض الاساتذة تلامذتهُ الصمّ البكم في مدينة كوبنهاغن وقاسهم مراراً في اليوم مدّة ثلث سنوات فتبيّن لهُ ان الاولاد ينمون في الطول مدّةً وفي الثقل أُخرى وانهم متى نموا في الطول لا ينمون في الثقل والعكس بالعكس كأنّ القوى الحيويّة لا توجه النمو الاّ الى جهة واحدة في الآن الواحد . وان النمو في الثقل يكون معظمهُ في الخريف واوائل الشتاء وفي الطول يكون معظمهُ في الربيع

والعوائد تؤثر في القامة تأثيراً يُذكر فاهل رومية كانوا يزعمون انهم اذا وخزوا اولادهم في ظهورهم طالت قاماتهم ولذلك وجدوا ان اكثرهم حدب الظهور قليلاً من اثر الوخز . ونساء سويسرا يغمسنَ السكّر في العرق ويناولنهُ لاولادهنّ لتسكينهم عن الصراخ وقد لاموهنّ على

ذلك بدعوى ان المسكرات تقصر القامة كما ثبت من تجريبها في المجاوات . وتساه السوقة من الافرنج يشربن الاشربة الروحية وهنّ حوامل زاعمات انها تحسّن بشرة اولادهنّ وليس بصحيح بل تأثيرها تقصير قامتهم . وطول القامة يكون باطعام الاولاد الاطعمة المغذّية الكثيرة النيتروجين والفصفات وبترويضهم الترويض النافع بالالعاب ونحوها وباسكانهم حيث الهواء نقيٌّ والضوء منتشرٌ كثيرٌ ونحو ذلك من الوسائط التي تزيد الجسم قوة ونشاطًا

والتعب يقصّر القامة ولذلك يمشي الرجل بعد الوقوف والمشي والركوب والسعي طول نهاره اقصر مما يصير بعد النوم والراحة كما هو معروف . وسببه انضغاط الغضاريف ورقتها وقلة مرونتها بعد التعب بما ذكرنا فقول العامة ان الوقوف يطيل القامة خطأٌ . والتعب العظيم والاجهاد الشديد يقصّران القامة مع السهر والارق تقصيرًا ثابتًا . وبذلك يحتال الناس على تخليص الشبّان من الخدمة العسكرية فانهم ينتخبون مَنْ كان طولهُ لا يزيد عن القياس المعيّن الاّ قليلاً ويتعبونهُ بانواع التعب ويحمّلونهُ الاثقال على راسهِ وكتفيهِ ويقلّلون نومهُ وطعامهُ مدةً من الزمان فيقصر عما كان ويصير دون القياس المعيّن فيُرفَض من الخدمة . وقلما ترى بين البناتين اللاتي اعتادوا حمل "النقير" على رؤوسهم في الصغر رجلاً طويلاً ولو كان ابواهُ من الطوال . وقلما ترى بين النساء اللواتي يكثرنَ من حمل الجرار على رؤوسهنّ طويلةً ولو كان ابواها من الطوال

واما السادسة فنقول فيها ان القصار والمتوسطين اسرع من الطوال حركةً وانشط للاعمال وسببهُ ظاهر فان الطويل الكبير اثقل من القصير الصغير ولذلك يتثاقل في حركاتهِ . ولا يقال ان قوّتهُ اعظم فتسهّل عليهِ تحريك جسمهِ الثقيل كالقصير او اكثر منهُ . لانهُ قد ثبت ان القوة لا تزيد بقدر زيادة ثقل الجسد . فالحصان الذي يساوي وزنهُ وزن حصانين آخرين لا يقدر ان يعمل عملهما كما تحقق بالتجارب العديدة وما ذلك الاّ لانّ قوتهُ لا تعادل مجموع قوتيهما . وكذلك الرجل الكبير الذي يساوي ثقلهُ ثقل رجلين صغيرين تكون قوتهُ اقل من قوتيهما على حد قول العامّة ضعيفان يغلبان قويًا . فالرطل من الرجل الصغير فيهِ من القوّة اكثر مما في الرطل من الرجل الكبير

وايضًا ان الرجل الطويل الاطراف (اي اليدين والرجلين) تكون حركاتهُ اوسع من حركات القصير فيقتضي لاتمامها وقتٌ اطول ولذلك تكون ابطأ فبينما يضرب الطويل بالسيف ضربةً يضرب القصير به اكثر من ضربةٍ . وتحريك الاطراف الطويلة يقتضي الاسراف في بذل القوة بخلاف تحريك القصيرة لان الذراع مثلاً كالعتلة (الخل) الكتف موضع الثقل منها والكتف

موضع الدارك والعضلات موضع القوة فكلما طالت لزم لتحريكها قوة اعظم . وما آل ذلك كلهِ الى كَلَل الطويل وتباطوهِ في حركاتهِ

والمتوسط القامة أصبر على المتاعب والمشاق من طويلها اولاً لما تقدم من الخفة وقلة بذل القوة وثانياً لان جهازهُ التنفسي اعظم بالنسبة الى جسدهِ كما يُعرَف من نسبة طولهِ الى محيط صدرهِ مقيساً على الثندوتين . فكلما زائد محيط صدرهِ بالنسبة الى طولهِ كان أقدر على احتمال المشاق وأصبر على المتاعب ولذلك لم يكن الفرنسويون يقبلون بين جنودهم الجرية الاَّ مَنْ كان طول محيط صدرهِ بقدر نصف طول قامتهِ او اعظم . ولا يزال السويسريون يشترطون هذا الشرط الى هذا اليوم . ولما كان الطوال دون غيرهم سرعةً في الحركة ونشاطاً واحتمالاً للاتعاب وصبراً على المشاق كان المتوسّطون يفضّلون عليهم حيث تلزم تلك الصفات . ولذلك مدحوا في جيش فرنسا الجنود المتوسّطة القامة للجد والعمل والطويلة القامة لحسن الهيئة وكمال الهيبة

الحرب

النبذة الرابعة . في تاريخ جيوش المحدثين

ذكرنا في اواخر مقالة الحرب في الجزء الماضي ان اختراع البارود وانشاء الجيش الثابت في اوربّا كانا من اشهر ما أبطل النظام الالتزامي القديم وأدّى الى النظام الحربي الجديد . اما البارود وما اخترع لهُ من الاسلحة الناريّة وما طرأ عليها من التغيير والتحسين حتى صارت على ما هي عليهِ الآن فلا نتعرض لهُ هنا . واما انشاء الجيش الثابت في اوربّا فقد تقدّم ان شارل السابع ملك فرنسا هو اوّل من شرع فيهِ فبلغ عددهُ ستة عشر الفاً من المشاة وتسعة آلاف من الفرسان . ولما حارب شارل الثامن ايطاليا بهذا الجيش وقهرها ثبت لملك اوربا انهُ لا يُواقَف في ساحة القتال ولا يُقاوَى في النزال فاضطرّت ان تعدل عن نظامها الالتزامي وتعوّل عليهِ . وكانت الجنود تُستأجَر اولاً بالمال من المتطوعين غُرَباء كانوا او وطنيين وعلى توالي الايّام تجلّت صورة الامّة والوطنيّة لمدارك الافراد وربي حبها في نفوسهم فتطوعوا في جندتها وقلّ الاجنيّون

ولم يبتدئ القرن السادس عشر الاَّ وقد شاع النظام الجديد واستعمال الاسلحة الناريّة وجُعِلت الأُرطة عند المحدثين بمثابة الكردوس او الفوج او الفالنكس عند من سَلَفهم من الامم فصارت تعبية الجيش بالأُرَط . ووضع فرديناند وشارل الخامس ملكا اسبانيا قانوناً لجيشها وكذا فرنسيس الاوّل ملك فرنسا لجيشهِ وعينوا منزلة المشاة والفرسان من الجيش وعرفوا لزوم